بسم الله الرحمن الرحيم

الأحد 9/9/2012 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة الأربعون النووية

البر حسن الخلق

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ((**سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟ فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**))، [مسلم].

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَابِصَةَ: ((**جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ؟**)). **قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ:** ((**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**))، [أحمد والدارمي].

هذان حديثان أيها الإخوان يتحدثان كما رأيتم عن البر، وعن الإثم.

هذه الحياة إما هي حق وباطل، أو خير وشر، بر وإثم، غداً عندما نموت جميعاً سنُسأل فقط عن هذين الأمرين.

هل كنت مع الحق وأهله، أم كنت مع الباطل وأهله؟ هل كنت من أهل البر أم كنت من أهل الإثم؟ لن تُسأل أبداً ماذا أكلت البارحة، ولن تُسأل أين كنت تسكن، ولن تُسأل ما نوع السيارة التي كنت تركب، ولن تُسأل كم ولد عندك، ولن تُسأل ما هي مدخراتك التي تركتها قبل أن تموت. ستُسأل سؤالين اثنين البر وما فعلت منه، والإثم وما فعلت منه. ثم توزن هاتين الكفتين فأيها رجحت فأنت من أهلها.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، [القارعة:6-11].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، [الزلزلة:7-8].

﴿أُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾: أي مستقره نار جهنم.

ما حَيِيتم فكروا فقط في البر والإثم.

وقد كان الصالحون لهم قصص عجيبة في إحصائهم البر والإثم في حياتهم فبعضهم مثلاً كان في الصبيحة يخرج ومعه مجموعة حصى، وكيس باليمين، وكيس باليسار فإذا فعل شيئاً من البر جعل حصاة في جيب اليمين، وإذا فعل شيئاً من الإثم جعل حصاة في الجيب اليسار، حتى إذا أمسى المساء جمع الحصى التي في اليمين، والتي في اليسار فإذا كثرت التي في اليمين حمد الله عز وجل، وإذا كثرت التي في اليسار لم ينم حتى يفعل الأفعال الصالحة حتى تكثر أفعال البر على أفعال الإثم.

ما حَيِيْتم أيها الإخوة أينما كنتم ذاهبين، وأين ما كنتم غادين ورائحين فكروا في البر، والإثم هل أنت مع البر وأهله، أو أنت مع الإثم وأهله؟

الآن النبي صلى الله عليه وسلم يدلنا على معيار للبر ومعيار للإثم:

نحن في الإسلام الخير والشر، البر والإثم، الحَسَنُ والقُبْح شرعيان، أي إذا الشرع قال لك هذا الفعل خير فهو خير، وإذا قال لك هذا الفعل شرير فهو شرير.

أما غير المسلمين أو الذين لا ينضبطون بالشريعة الإسلامية عندهم البر والإثم عقليين، أو نفعيين أو عرفيين.

كيف؟ أي الزنا بر أم إثم ؟

عندنا في الإسلام الله يقول أنه إثم، أما العالم الغربي فالزنا عنده حرية شخصية، فعندهم الإثم بر بحصول موافقة الطرفين، وعندهم البر والإثم، الحسن والقبح عُرفيان أو نفعيان.

الربا هل هو بر أو إثم فعندنا إثم لأن الله يقول إثم، أما عندهم ممكن أن يكون بِرٌّ ما دام الرجل ذهب بإرادته للاقتراض، والطرفان راضيين فالأمر جيد.

فلأجل أن يُوَطِّد الرجل سلطانه فيقتل من الناس من قتل هل بر أم إثم؟ فبحسب المصلحة الشخصية هو بر لكن حسب الشرع هو إثم.

شاب تعارف على فتاة في الجامعة فأحبها، وأحبته وصار يوصلها، ويأخذها، ويزورها في مرضها، ويعطيها الهدايا، ويحنو عليها وهم غرباء عن بعضهم. فبحسب الشرع إثم ولكن بحسب هوى النفس لهذا الشاب إنه بر.

فالبر والإثم عندنا شرعيان، والحسن والقبح عندنا شرعيان.

رجل أطاع أمه الكبيرة بالعمر، وهي لا تتقن كتابة، ولا قراءة، ولا تعرف لغة أجنبية فلو أطاعها فهو بر في شرعنا، لكن عند الغربيين هذا تخلف لأنها أُميَّة وهو أستاذ في الجامعة.

فعند المصالح الدنيوية هذا إثم، ولكن نحن المسلمون الحاكم علينا هو رب العالمين، والحاكم علينا الشرع، والحاكم علينا أوامر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

بما أن الحياة خلاصتها البر والإثم، وبأنك بالآخرة ستذهب إلى دار ونفرز إلى نوعين بحسب البر والإثم الآن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاك مفتاحاً لذلك فأصل البر أن تأخذه من الشرع (قال الله أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولكن ماذا لو أن أحدنا عُرضت عليه مسألة وما كان يحفظ لها دليلاً من قال الله أو قال رسول الله؟

قال رسول الله للصحابي ما أن دخل اجلس جئت تسأل عن البر فقال: نعم، قال: ((**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ**)) أنا سأعطيك معياراً إذا كنت لا تحفظ قرآناً ولا تحفظ حديثاً في مسألة عرضت عليك الأصل أن ترجع إلى القرآن والسنة ولكن الآن **ماذا لو كنت في زمان أو مكان أمر عرض عليك أمر لا تعرف شيئاً عن القرآن والسنة ولا تستطيع أن ترجع إلى أهل الاختصاص؟**

فقال: ((**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ**)) والمراد نَفْسُ المؤمن لأن النفس المزكاة تصبح معاييرها صحيحة أما النفس المريضة تصبح معاييرها خاطئة.

فكلنا الآن والحمد لله لسنا مَرْضَى ولو قَدَّمت لكل واحد منكم كأس ماء لَشَرِبه وحمد الله وشكرني. لكن إذا كان هناك واحد منا عنده مرض في فمه وقدمنا له كأس ماء وشرب ربما يتضايق فنحن الآن نقول كأس الماء جيد بناء على النفوس الصحيحة .

الآن لو دُعِيتُم أنتم إلى عشاء فاخر لشكرتم صاحب الدعوة لكن لو كان هناك إنسان مريض متعب مهدود القوى، وأخذناه معنا إلى هذه الدعوة، وأجلسناه فبعد ساعة سيقول سامحكم الله ليتكم لم تأخذوني أتعبتموني، ليس لأن الدعوة ليست جيدة ولكن لأن نفسه مريضة.

فالبِرُّ: ((**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ**))

قلب المؤمن ونفسه مفطورة على الصواب ولا يزال الإسلام يزكيها بالصواب حتى إذا عُرِضت له مسألة في يوم من الأيام ولا يعرف دليلها فلينظر إلى نفسه وقلبه هل تطمئن لهذا الأمر، أو تخاف، أو تُحجم أو تنقبض؟

لأن عكسه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ((وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ)) يعني سَبَّبَ للنفس اضطراباً ونفوراً.

مثلاً: أحياناً بائع يأته زبون ويطلب منه مجموعة كؤوس سعرها ثلاث مائة ليرة ولكن ينظر إليه فيراه عليه أثر النعمة، ومعه سيارة فخمة فيقول الدنيا فيها أزمة فلما سأله عن السعر قال له خمس مائة فدفع السعر ومضى. فهذا البائع عندما يعود لبيته يبدأ شيء يتردد في نفسه،يختلج في نفسه، يضطرب في نفسه، يقلق في نفسه، ينفر داخل نفسه. فيقول: هل يجوز ما فعلته؟ ربما لا يجوز هل هو حلال أو حرام؟ فالإثم ما حاك في نفسك يعني سَبَّبَ في نفسك اضطراباً، ونفوراً، وقلقاً.

أي رجل يأتي طفل إليه ويطلب خضار فعندما يراه طفلاً صغيراً يعطيه الرديء من البضاعة فعندما يذهب الطفل يبدأ شيء يدور في داخله هل هذا الشيء يجوز أم هو حرام؟

أحياناً شخص يهديك هدية لكنك تعلم أنه كثير من ماله حرام فتبدأ تسأل نفسك هل أقبلها أم لا، هل أتصدق بها؟

والإثم ما حاك في النفس سبب في النفس اضطراباً، سبب في النفس قلقاً، سبب في النفس نفوراً.

شاشة تلفاز كبيرة ربما يكون سعرها أربعين ألف فرآها رجل تباع في سوق للأدوات المستعملة وسعرها ألفين ليرة فتفكر ربما هي مسروقة فهل يجوز لي أن أشتريها؟

والإثم ما حاك في صدرك فتبدأ تفكر وتبدأ تقلق ويبدأ النفور في قلبك وكرهت أن يطلع عليه الناس.

الإثم نوعان:

1. إثم تضطرب له نفسك .
2. وإثم تكره أن يطلع عليه الناس .

شاب يرسل رسالة لفتاة لا تحل له أخشى ما يخشاه أن يطلع على هذه الرسالة والده، أو والدته، أو شيخه فهو يخاف.

شاب يواعد فتاة لا تحل له فيواعدها في الشمال وبيته في الجنوب.

((وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)) أي الفضلاء من أهل بيتك.

فتاة تخرج من بيتها محجبة لا تضع على وجهها شيء من الأصباغ لكنها تضع ذلك في حقيبتها فإذا ابتعدت عن بيتها وضعت شيء من الأصباغ على وجهها فلماذا لم تضعيه في البيت؟

فهذان معياران للإثم ما حاك في صدرك يعني سبب لك قلقاً واضطراباً وما كرهت أن يطلع عليه الناس .

وربما كان الإثم يجمع الأمرين نفسك السوية تتضايق منه، وتكره أن يطلع عليه الناس.

الأصل يا أيها الإخوة أنك مهما أردت أن تفعل شيئاً أو مهما دُعيت إلى شّيء أن تسأل الشرع ماذا يقول الله وماذا يقول رسول الله وإن كنت لا تعلم ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:43] لكن إذا ذهبت إلى مكان، أو كنت في زمان أو كنت في أمر يصعُب عليك أن تستفتي أهل الذكر فالنبي صلى الله عليه وسلم أعطاك معياراً عن البر والإثم فقال: ((الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)).

الآن النبي صلى الله عليه وسلم يقول في هذه الأحاديث استفت قلبك لذلك فالأصل أنه إذا عُرض عليك أمر ولا تعرف حكمه الشرعي الأصل أنك تسأل الشرع لكن الآن أنت في زمان، ومكان ليس لديك الإمكانية لتسأل أهل الذكر فقال لك: استفت قلبك.

لكن العلماء أكدوا أنك تستفت قلبك في المباحات فلا يجوز للإنسان أن يستفت قلبه في الفرائض، فمثلاً بعد قليل سيؤذن العشاء فلا يجوز أن يقول إنسان أنا قلبي يقول لي أن لا أصلي العشاء... فصلاة العشاء فرض .

- أن تسأل الشرع ماذا يقول الله وماذا يقول رسول الله وإن كنت لا تعلم ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، [النحل:43].

رجل قُدِّم له كأسُ خمر هو حرام فيقول قلبي يقول: ذقه فضولاً، فلا يجوز لأنه حرام.

ولا يكون استفتاء ذلك إلا في المباحات

فأُسْأَل أحياناً من شاب تعرَّف على فتاة سافرة فقالت له إذا تزوجتني أضع الحجاب، وأرتدي المعطف، وأصبح أصلي ولي علاقات غير مشروعة لكن سأترك كل هذه العلاقات، وإن لم تتزوجني سأبقى على ما أنا عليه. فما الجواب ؟! الجواب: أن لا تفعل. لأن الفتاة التي لها من العمر

عشرين سنة، وهي في ممشى معين فهي تتغير لأجلك بعض الأيام، ولكن سترجع بعد ذلك إلى عاداتها بطريقة ما.

ولكن أحياناً يرى الإنسان نفسه أنه متعلق ولكن هل يجوز هذا الزواج فنقول نعم بناء أنها تقول بأنها ستغير ولكن الآن نقول له: استفت قلبك.

جاءني مرة شاب فقلت له أنت كم مرة ستتزوج في حياتك فقال مرة واحدة فقلت إذن لا تخاطر بذلك لأنه ربما يمكنك أن تتزوج من هذه الفتاة وتنضبط بكل ما قالته ولكن ممكن أن لا تنضبط . أي نصف الاحتمال أن لا تنضبط فلا تخاطر بحياتك لأنه هناك احتمال أن لا تنضبط فأنت لن تتزوج بشكل عام إلا مرة واحدة.

ومع هذا إذا شاهد الإنسان نفسه متعلقاً، نقول له: استفت قلبك.

والآن نختم الحديث بقول: ((**وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**)) .

أحياناً يكون هناك أناس جالسين في مجلس فيقول شخص من الحاضرين قد قلت لزوجتي البارحة أنها طالق ولكن كنت غاضب فيقول أحد: إذا كنت في غضب لا تَطْلُقْ.

ولكن في الشرع طلقت ولو كنت غضبان، وهذا الذي أفتاك لا يعلم.

إذا كان الناس الجهلة هم الذين قالوا لك يجوز أو لا يجوز فارجع إلى قلبك إذا لم تستطع الرجوع إلى أهل الذكر، فالأصل أن ترجع إلى أهل الذكر والحقيقة أنكم تجدون الكثير من هؤلاء وهكذا أنا أجد كثير من هؤلاء يكون في مجلس يقول هذا الكلام فيقول له أحد الجالسين لم تُطَلَّق ثم يأتيني في اليوم الآخر يسألني عن فُتيةِ جاره لأنه غير مطمئن . هذا دليل أن قلبه يتحرك في داخله .

مراراً يتصل إخوة بخصوص هذا الأمر، وفعلاً عند السؤال عن القصة، وتفاصيلها فالمرأة مُطلقة منه .

ماذا لو أفتاك أهل العلم بفتوى ولم يرتح لها صدرك؟!

الآن بالعكس نحن قلنا إذا الجهلة أفتوك، ولم يرتح صدرك فاستفت قلبك، والآن بالعكس رجل من أهل العلم أفتاك بأمر ولم يرتح صدرك لهذا الأمر، وأعطاك الدليل ولم يرتح صدرك، فماذا تفعل؟ تتبع صدرك أم تتبع الدليل؟ **الجواب**: نتبع الدليل.

لذلك لو أن قلبي لم يرتح فما دام قُدِّم لي الدليل فالقول قول الدليل، والشاهد على هذا الأمر أن الصحابة رضوان الله عليهم في صلح الحديبية طلب إليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يفكوا إحرامهم ويتحللوا منه ورسول الله مشرع من عند رب العالمين.

فالصحابة وجدوا نفوسهم وقلوبهم لم ترتح لهذا الأمر لكنهم حملوا قلوبهم وأنفسهم على قول الشرع.

فأحياناً ربما شخصين يكون بينهما خصومة يتحاكمان إلى عالم، فالعالم يقول إلى فلان أنت الظالم، وعليك أن تدفع وتفعل كذا .

حسناً ربما هذا ينزعج فلو انزعجت لا بد أن تحمل نفسك على الشرع لا أن تحمل الشرع على ما تشتهيه نفسك.

فإذا كان العالمُ مقدماً لك الدليل أو إذا كنت اطلعت على الدليل في مسألة سواء ارتاح قلبك أو لم يرتح قلبك فالقول قول الشرع .

لكن إذا كان الناس الذين أفتوك عندهم جهل أقول لك استفت قلبك إذا لم تجد عالماً، فالأصل أن تستفت العالم فإن لم تجد فاستفت قلبك.

وأما الفقرة الأخيرة في هذا الدرس فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث النواس بن سمعان ((الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ)) .

قالوا في معنى حسن الخلق: **التأدب بآداب الله التي شرعها لعباده من امتثال أمره وتجنب نهيه.**

البر في اللغة: اسم جامع لكل خير أي فعل خير اسمه بر.

لكن هنا المراد البر حسن الخلق.

قالوا: التخلق بأخلاق الشرع يعني أمر الشرع ونهي الشرع هذا هو البر.

لكن لماذا خَصص النبي صلى الله عليه وسلم حسن الخلق؟

حسناً الصلاة أيضاً من البر، والصوم من البر، والحج من البر، وبر الوالدين من البر، والحكم بما أنزل الله من البر، والقضاء الإسلامي من البر، ورعاية الزوجة من البر، ترك الخمر من البر، ترك السرقة من البر، ترك الاعتداء على الناس من البر.

حسناً لماذا يخصص النبي صلى الله عليه وسلم البر بحسن الخلق مع أن هذه الأعمال كلها بر؟

خصص النبي صلى الله عليه وسلم البر بحسن الخلق في إشارة بأن حسن الخلق ركنٌ ركين في أعمال الإسلام .

مرة شاب قال لي أستاذ أنا عندي مشكلة أن لساني سليط . معنى هذا الأمر أنك مريض مرض في عمق قلبك.

شاب يقول لي يا أستاذ أنا مشكلتي بأن عيني تنظر دائماً إلى المحرمات وتتبع النساء وتتسلط عليهن، يعني ذلك أنك مريض في قلب إيمانك.

مع أن البر هو كل أعمال الخير لكن النبي صلى الله عليه وسلم خصصه بحسن الخلق.

حسناً إنسان إذا غضب فلا يستطيع أن يعلم خيراً من شر فمعنى ذلك أن هذا الإنسان مريض في صميم قلب إيمانه؛ لأن البر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حسن الخلق.

هذا شيء من معاني حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من الذين تكثر أعمالهم الخيرات، ويمحو الله تعالى عنهم الآثام.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين.